الحقيقة و الموضوعية في الدراسات التاريخية

أ.د يوسف قاسمي

المقـدمــة:

اذا كانت **منهجية البحث التاريخي** تهدف أساسا الى **إعادة صياغة البناء التصويري للماضي من وقائع الحقائق و المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا ،** انطلاقا من خطة تقوم و تستند على فحص و تحليل وقائع الماضي و مخلفاته ، و تقوم **الدراسات التاريخية** خاصة على **تحليل الدليل** القائم بين يدي المؤرخ ، و هو ً **الوثيقة** ً ، انطلاقا من طبيعة المادة التاريخية المتوفرة و مدى مواصفاتها للحقيقة التاريخية ، و هذه الحقيقة ليست بكل الأحوال **" حقيقة مطلقة"** بل هي **نسبية** لان هذه الحقيقة جزء من حوادث الماضي لا نستطيع ملاحظتها في الواقع، و ان كنا **باستطاعتنا ان نعاين آثارها و نطلع على تدوينها من مصادرها الماضية** ، و تشكل هذه القضية إحدى تحديات **البحث التاريخي** و الإنساني بشكل عام .

وتتجمع هذه **التحديات** نحو قطبين هما :

*** موضوع الدراسة من جهة**

*** و الباحث من جهة اخرى .**

ليشكلا صعوبات على منهج البحث ان يتجاوزها ، و عقبات عليه ان يتجاوزها و تتعلق خاصة بقضية الموضوعية .

1- الحقيقة التاريخية :

نعني بها: **الوقائع التاريخية كما جرت في ملابساتها و ظروفها و أشخاصها و مكانها و زمانها و دوافعها و غاياتها كما هي مطابقة مع الحال**.

بهذا المعنى و على اعتبار أن **التاريخ وقائع الماضيً** و الماضي انقضى حدوثه بكل مكوناته و أبعاده ، و من ثم فان إعادته و **استرجاعه كما هو أمر في حكم المستحيل.** و عليه درج الباحثون إلى بذل الجهد لأجل **استرجاع** ًملامحهً و ً **ظلالهً** و ً **شواهدهً** ثم **اعادة تركيبه و صياغته لتشكيل الصورة التقريبية له** لمعرفة خطوطها العامة و **الاقتراب من الحقيقة التاريخية في حالتها النسبية** او **الممكنة** .

***2* – الموضوعية التاريخية**

الحادثة التاريخية في نظر العلم هي **ظاهرة موضوعية** لا نستطيع دراستها إلا اذا **بعثت كما هي على حقيقتها** و هذا **أمر مستحيل** كما أسلفنا، و عليه فان **أهم هدف للدراسة التاريخية هو إعادة صياغة الماضي كما نتصوره نحن في صورته الحقيقية لا كما وقع بالفعل**؛ أي **البحث عن الحقيقة الممكنة و ليس الحقيقة المطلقة !** و من هنا فان كل **ما يكتب بشأن المواضيع التاريخية** هو في الحقيقة **يمثل تصورنا الشخصي لهطا الماضي**؛ لأننا **مهما التزمنا بالقواعد المنهجية و المواصفات العلمية... لا يمكننا إعادة الماضي كما هو بالضبط ولكن من خلال فهمنا للماضي انطلاقا من ثقافتنا و ميولنا و مواقفنا** .

- وعليه فان **الموضوعية مفهوم معقد و نسبي و مختلف حوله** ففي الوقت الذي يراه البعض: **" غياب لكل عوامل التحيز و كف لتأثيرهاً** أو هيً **عزل لكل ما يؤثر على الباحث في التزامه بالواقع."** بعد هذاً **التحديد السلبيً** للموضوعية

مرفوضا لدى البعض الآخر من الوجهة المنطقية على الاقل لأن الموضوعية في نظرهم هي **" موقف و حكم "** و **لا يمكن ان تكون امتناعا عن اتخاذ موقف او توقفا عن إصدار حكم !**

- لأن لفظة ً **الموضوعية** ً نفسها تدل على دلالتها ، أي **الحكم الموضوعي** و هو ً **حكم التزم بالموضوع المحكوم عليه** ً ، و تقدير لمدى قربه من اصله ومادته **(أي الموضوع)** و يجمع هذا **التقدير في علاقة وثيقة بين الذات (الباحث)** و الموضع قيد الدراسة .

*** مستويات الموضوعية:**

1 **المستوى الانطولوجي** : أي الذي يتصل **بالمحتوى العياني** لعناصر **النظرية العلمية .**

2 **المستوى الميتودولوجي** : أي المتعلق **بالمنحى المنهجي** في دراسة **موضوعات البحث** .

- و يقوم المستوى الأول بالإجابة عن السؤال : **ماذا ندرس ؟** يجيب المستوى الثاني عن السؤال: **كيف ندرس ؟**

*** محاور الموضوعية :**

تقوم مواقف الباحثين من قضية **الموضوعية** في التاريخ و العلوم الإنسانية حول **ثلاث محاور** : **الواقعة – الماهية – البنية** (فمن **الخارج تتقوم الموضوعية** في **الواقعة)** و تأسس من **الداخل** في **الماهية** ، و تتعامل من **الخارج** و **الداخل** معا في **البنية** .

الخلاصة :

الموضوعية في الدراسات التاريخية يراد من وراء إثارتها ان تبلغ الدراسات الإنسانية **مستوى العلوم الطبيعية** و **نجاحها** ، او تتمثل **روحها و طابعها** ، و البحث عن صورة معينة **للنموذج او المشروع العلمي** يمكن ان تدركه **العلوم الإنسانية** او تقصر دونه فهي في النهاية النموذج الذي يحظى باتفاق الباحثين بشأن: **الموضوع – و الباحث** معا